

ويتخذ منكم شهداء

عبد الآخر حماد

يقول الله تعالى في معرض تسليته للمؤمنين بعد هزيمة أحد : [إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين] آل عمران : 140

يكشف هذا النص الحكيم في بعض معانيه عن جانب من جوانب حكمته تعالى في تقدير الهزيمة على المسلمين ونزول الابتلاء بهم ، ومن أهم ما يعيننا هاهنا التركيز على قوله تعالى (ويتخذ منكم شهداء) ، فالآية الكريمة تشير إلى أنه إذا كان من حكمة وقوع الهزيمة أن يظهر المؤمن من المنافق فيتطهر بذلك الصف ويصفو ، فكذلك من حكمته أن ينال أقوام من المؤمنين الشهادة في سبيل الله ، وهذا يعني أن الشهادة في حد ذاتها غاية عظيمة تستحق أن يقدر المولى من أجلها هذا البلاء مع ما فيه من المشقة والألم .

كما أن التعبير بقوله (يتخذ) هو تعبير عجيب عن معنى عميق كما يقول صاحب الظلال ، فالشهداء مختارون يختارهم الله ويصطفئهم من بين سائر الناس ، يستخلصهم لنفسه ويخصهم بقربه ، وإذن فالموت في سبيل الله ليس برزية ولا مصيبة بل هو شرف عظيم ومترلة عالية .

إن مقام الشهادة في الإسلام ليكشف عن ميزة عظيمة ينفرد بها الدين الحق عن كل مناهج البشر ومذاهب الناس ، فليس في تلك المذاهب من يعطي من يموت في سبيله تلك الخصائص العظيمة التي يمتاز بها الشهيد في الإسلام ، صحيح أن كثيراً من أصحاب تلك المناهج يعظمون قدر من مات منهم في سبيلها ، لكنه في النهاية تقدير محدود بما يملكه أصحاب تلك النظريات والمناهج من الإشادة بذاك الشخص وتخليد ذكراه ونحو ذلك ، وهو تقدير قد يكون كافياً لدفع البعض إلى التضحية بأنفسهم في سبيل مبادئهم وآرائهم ، لكن الكثيرين من البشر لا يرون فائدة كبيرة وراء التضحية بالنفس في مقابل بعض الذكر والثناء ، وكلا الفريقين - من ضحى بنفسه ومن أحجم - باحث في الحقيقة عن حظ نفسه على حد قول أبي الطيب :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه * حريصاً عليها مستهماً بها صباً

فحب الجبان النفس أورده التقى* وحب الشجاع النفس أورده الحربا
أما في الإسلام فإن ما يعطاه الشهيد ليس مجرد ذكر وثناء، بل هو حياة كاملة
خالية من كل منغص ومكدر، كما قال تعالى: [ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله
أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون] . (آل عمران : 169) .

ولذا فإن الله عز وجل حين سمى نبيه يحيى بهذا الاسم، أراد أن يهبه من الحياة ما
يتوافق به الاسم مع المسمى، فلم يكن أبلغ في ذلك من أن يختار له الشهادة، ليرزقه الحياة
الكاملة، وما ذاك إلا لأن الله وحده هو القادر على كل شيء فسمى شخصاً باسم فلا
بد أن يكون في ذاك الشخص من الصفات ما يتوافق به اسمه مع مسماه، أما البشر فلا
يملكون ذلك؛ ولذا فإنه لما سمى بعضهم ولداه (يحيى) لعله يحيا وتطول به الحياة، لكنه
مات وهو وليد فأنشده أبوه يقول:

وسميته يحيى ليحيا فلم يكن* لرد أمر الله فيه سبيل

ثم إن ما يعطاه الشهيد ليس خاصاً به وحده، بل إن نفعه يتعدى لأهله وذويه
؛ فالشاهد يشفع في سبعين من أهل بيته، كما جاء في حديث أبي الدرداء مرفوعاً عند أبي
داود (2522)، وحديث المقدام بن معد يكرب مرفوعاً عند الترمذي (1663) وابن
ماجه (2799) وأحمد (131/4) وكلا الحديثين صحيح .

وفي الاتخاذ معنى آخر أشار إليه الإمام ابن القيم في زاد المعاد (223/3)، وهو أن
الله تعالى يحب أقواماً من عباده، وقد أعد لهم أعلى المنازل في الجنة وأفضلها، فكان لا بد
أن ينيلهم الشهادة لكي يكونوا أهلاً لتلك المنازل العظيمة .

وإن المتأمل في حال الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم قد لا يفوته أن يلمح شيئاً
من ذلك المعنى؛ فإن من هؤلاء الخلفاء الأربعة ثلاثة قد اختصهم الله بميزة الشهادة، بينما
مات أولهم رضي الله عنه على فراشه، وما ذاك والله أعلم إلا لأنه كان صديقاً، والصدقية
أعلى مرتبة من الشهادة كما في قوله تعالى: (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين
أنعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً)، أما
الثلاثة الآخرون فلم يبلغوا مرتبة الصدقية، ولذا احتاجوا إلى الشهادة لكي يكونوا مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه في الجنة .

وإذا كانت الشهادة بتلك المترلة العظيمة فإن ما يقابلها من بغي أعداء الله وإيذائهم للمؤمنين هو أمر مقصود أيضاً؛ فإن الله تعالى إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم قيص لهم أسباب ذلك، ومن أعظمها بعد كفرهم بالله تعالى تسلطهم على أولياء الله تعالى وإيذائهم لهم بالقتل ونحوه، فينال المؤمنون الشهادة، ويقترب الكفار بذلك من أسباب محقتهم وهلاكهم، ولذا ربط الحق سبحانه بين كون الابتلاء تمحيصاً للمؤمنين وكونه محقاً للكافرين، فقال عز من قائل: (وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) آل عمران .141

ولما كانت الشهادة بتلك المثابة، فقد كانت أكبر برهان على حب العبد لربه وطاعته لخالقه ومولاه، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: ((لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حرفة الشجعي فتنوع المدعون في الشهود فقليل لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة [قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله]، فتأخر الخلق كلهم وثبت أتباع الرسل في أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة وقيل لا نقبل العدالة إلا بتزكية [يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم]، فتأخر أكثر المدعين للمحبة وقام المجاهدون، فقليل لهم: إن نفوس المتحايين وأموالهم ليست لهم فسلموا ما وقع عليه العقد ف [إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة]، وعقد التبائع يوجب التسليم من الجانين، فلما رأى التجار عظمة المشتري وقدر الثمن وجلالة قدر من جرى عقد التبائع على يديه ومقدار الكتاب الذي أثبت فيه هذا العقد، عرفوا أن للسلعة قدراً وشأناً ليس لغيرها من السلع فرأوا من الخسران البين والغبن الفاحش أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة، تذهب لذتها وشهوتها وتبقى تبعثها وحسرتها فإن فاعل ذلك معدود في جملة السفهاء فعقدوا مع المشتري بيعة الرضوان رضاء واختياراً من غير ثبوت خيار وقالوا: والله لا نقيلك ولا نستقيلك، فلما تم العقد وسلموا المبيع، قيل لهم: قد صارت نفوسكم وأموالكم لنا والآن فقد رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعاف أموالكم معها، [ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون]، لم نبتغ منكم بنفوسكم وأموالكم طلباً للربح عليكم بل ليظهر أثر الجود والكرم في قبول المعيب والإعطاء عليه أجل الأثمان ثم جمعنا

لكم بين الثمن والمثمن ... فسبحان من عظم جوده وكرمه أن يحيط به علم الخلائق فقد أعطى السلعة وأعطى الثمن ووفق لتكميل العقد وقبل المبيع على عيبه وأعاض عليه أجل الأثمان واشترى عبده من نفسه بماله وجمع له بين الثمن والمثمن وأثنى عليه ومدحه بهذا العقد وهو الذي وفقه له وشاءه منه ((زاد المعاد: 73/3) .